المعجزة الكبرى للقرآن الكريم

محاضرة

ألقاها الدكتور عبد العزيز برهام

الأستاذ بالكلية

في تفسير قوله تعالى :

" فويلٌ للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون:
هذا من عند الله ؛ ليشتروا به ثمنا قليلا . فويل
لهم مما كتبت أيديهم ، وويل لهم مما يكسبون "

س . البقرة ٢ / ٧٩

يوم الأثنين | ١١ من صفر ١٤١١ هـ
٢٩ مارس ١٩٩٣ م

أيها المستمعون الكرام!

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

(وبعد) فلكل دين من الأديان السماوية الثلاثة التي نعرفها كتابُه الذي يختص به . وهو يشكل أساس الأيمان عند المؤمنين بهذا الدين . وكل مؤمن يعُد كتابه تسجيلا لوحي إلهي .

** وقد يكون هذا الكتاب منزلا تنزيلا مباشرا ، فيتلقي الرسول الوحي من خالقة رأسا ، دون واسطة ، كما كان الشأن مع إبراهيم ، وموسي (عليهما السلام)

يقول الله سبحانه وتعالي " إن هذا لفي الصحف الأولي ، صحف إبراهيم وموسي " ، في الوقت الذي لا نعثر في التوراة التي بين أيدينا ، علي أي وحي إلي " ابراهيم " عليه السلام ـ تتكوّن منه الصحف المشار إليها . وكل ما نلتقي به فيها هو تجلي (يهوفا) لأبراهيم تارة ، وإبلوهيم تارة ، وأكثر ما يقوله له هو الوحي الخاص " بالوعد " بأعطاء (ابراهيم) وذريته من بعده أرض كنعان ـ فلسطين . وبعد هذا التجلي يبني الرسول مذبحا للرب الذي ظهر له ، في المكان الذي ظهر فيه ، وقد يسميه باسمه . أما ما هو دين إبراهيم الذي يشير اليه القرآن الكريم ، والصحف التي سجلته ، فلا أثر لهما أصلا في التوراة . فهل معني هذا أن هذه الصحف لا أساس لها أو أنها اندثرت ؟ إن النظر الديني الحديث ـ كما سنري ـ أثبت أن التوراة التي بين أيدينا ليست هي نفسها التي أُوحي بها ، وإنما الذي دون منها ليس إلا روايات كانت تتناقل ، قبل أن تدون، شفاها ، علي ألسنة بني إسرائيل ، حتي انتهي بها الأمر بعد قرون عدة إلي تسجيلها أي أنها لا تضم كل ما أوحي

به ، بل ضمت ما علق بأذهان المتعبدين بها . أما ما لم يعلق فقد عفا عليه الزمن . هذا ، ولما كانت الفترة التي عاش فيها إبراهيم كان بينها وبين فترات التدوين دهورا طويلة ، فليس ببعيد أن رسالة إبراهيم تكون قد اندثرت ، لأن الوثنية في أيامه كانت منتشرة بين سكان المناطق التي عاش فيها والتي تنقل فيها ، وكانت العشائر التي تعيش في هذه المناطق التي عاش فيها إبراهيم كثيرة تدين بغير دين إله إبراهيم ، وقد اختلط بنو اسرائيل بهم ، وشاركوهم عبادتهم ، ونسوا بذلك ما كانوا قد تلقوه من ابراهيم من تعليمات ، ولا سيما في الفترة التي كان فيها الرسول يعيش في وادي الرافدين ، في (أور) الكلدانيين الذين كانوا يعبدون الكواكب ، والتي سجلها القرآن الكريم أروع تسجيل ، وسجل موقف قوم ابراهيم منه ، حين أوقدوا نارا ، وألقوه فيها ، فقال الله سبحانه ـ " قلنا ، يا نار ! كوني بردا وسلاما علي ابراهيم " . إن القرآن الكريم يسرد علينا طبيعة الصراع الذي دار بين ابراهيم (عليه السلام) وقومه ، في أكثر من موضع منه ، ويعلن حربا شعواء علي عبادة الأوثان التي كانت منتشرة في تلك الأماكن ، بين سكانها ، حينذاك ، والتي لم تشر إليها التوراة ، بحرف واحد . يقول الله تعالي :

" ولقد آتينا إبراهيم رُشده من قبل ، وكنا به عالمين (٥١) إذ قال لأبيه وقومه : ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون (٥٢) قالوا : وجدنا آباء نا لها عابدين (٥٣) . قال لقد كنتم ، أنتم وآباؤكم في ضلال مبين (٥٤) . قالوا : أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين (٥٥) . قال : بل ربكم رب السموات ، والأرض ، التي فطرهن ؛ وأنا علي ذلكم من الشاهدين (٥٦) . وتالله لأكيدنّ أصنامكم بعد أن تُولوا مدبرين (٥٧) . فجعلناهم جذاذا إلا كبيرا لهم ، لعلهم إليه يرجعون (٥٨) قالوا : مَن فعل هذا بآلهتنا ، إنه لمن الظالمين (٥٩) . قالوا سمعنا فتي يذكرهم يقال له (إبراهيم) (٦٠) قالوا فأتوا به علي أعين

الناس ، لعلهم يشهدون (٦١) قالوا . أ أنت فعلت هذا بآلهتنا ، يا ابراهيم ؟ (٦٢) . قال : بل فعله كبيرهم هذا . فاسألوهم ، إن كانوا ينطقون (٦٣) فرجعوا إلي أنفسهم ، فقالوا : إنكم أنتم الظالمون (٦٤) ثم نُكِسُوا علي رءوسهم : لقد علمت ما هؤلاء ينطقون (٦٥) قال : أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئا ولا يضركم (٦٦) أفٍّ لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون (٦٧) قالوا : حرقوه ، وانصروا آلهتكم ، إن كنتم فاعلين (٦٨) قلنا: يا نار ! كوني بردًا ، وسلاما علي إبراهيم (٦٩) . وأرادوا به كيدا ، فجعلناهم الأخسرين (٧٠) . ونجيناه ، ولوطا إلي الأرض التي باركنا فيها للعالمين(٧١). ووهبنا له إسحق ، ويعقوب نافلة ، وكلا جعلنا صالحين (٧٢) . وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا ؛ وأوحينا إليهم فعل الخيرات ، وأقامَ الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وكانوا لنا عابدين (٧٣) .

س الأنبياء ٢١/٥١ـ٧٣

** هذا السرد التاريخي ـ الديني الرائع ، وهذا التقدير الكبير لأبراهيم لم تشر إليه التوراة بكلمة واحدة ، فقد أغفلت الفترة التي عاش فيها (إبراهيم) في أرض الكلدانيين قبل أن ينتقل إلي (حاران) مع ذريته ، ولوط ابن أخيه ، ويبدأ هناك حياة جديدة ، ويتجلي له الرب ـ كما قلنا أكثر من مرة.

إن الآيات الكريمة التي أوردناها ، تبين معالم الدين الجديد ، الذي يعلن الوحدانية ، ويجدد طريق العبادة التي أغفلها (العهد القديم) ، والتي تتمثل في عبادة الله ، وفعل الخيرات ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ... لأن عبادة الأوثان التي خلفها ابراهيم وراءه في بلاد الكلدانيين التقي بها في البادية التي هاجر إليها ، واختلط قومه بسكان المناطق التي كان يتنقل فيها طلبا للرزق ، وحدث امتزاج بين ما أوحي إليه به ، وما كان يعبده هؤلاء السكان .

وإذا كان ابراهيم لم يترك وراءه صحف دونت فيها الديانة الموحي بها مباشرة فان (موسي) كان كذلك كليم الله . وهو الذي حمل العبء الأكبر في تبليغ رسالة السماء . يلقي في سبيل ذلك ما لقي من عنت ، وضيق ، ومشاق. واستوزاء من بني إسرائيل الذين قادهم عبر صحراء ليرشدهم إلي مكان الأرض الموعودة . حتى كلمه (يهوا) رأسا أكثر من مرة . بما يريد أن يوحي إليه به . وهو الذي تلقي الألواح التي سجلت عليها الديانة الجديدة . وأشار الي ذلك كل من القرآن الكريم ، والتوراة .

*** هذا ، وقد يكون الوحي منزلا بطريقة غير مباشرة ، عن طريق رسول ، يكون حلقة الاتصال بين الموحِي ، والموحي إليهم ، كما هو الشأن مع عيسي ومحمد (عليهما السلام) . فقد أعلن المسيح أنه يتكلم باسم الرب ؛ وأما محمد (صلوات الله وسلامه عليه) فقد بلغ الرسالة التي نقلها إليه جبريل (عليه السلام) .

والإسلام يحد التوراة ، والأنجيل كتبا مقدسة ، ويجعل الأيمان بما صح لديهما جزءا من العقيدة ، بينما بنو إسرائيل ، والنصاري ينكرون علي القرآن أن يكون كتابا موحي به ، ويدعون أنه من صنع الرسول ، وأنه نقل عنهما ما جاء به ، وأن بشرا يعلمه ، فيرد الله بقوله : " لسانُ الذي يُلْحِدُون إليه أعجميٌ، وهذا لسان عربي مُبين " .

النحل ١٠٣/١٦ .

إن اليهودية لا تعترف بأي وحي جاء بعدها ، فهي تكذب بالمسيح ، ولا زال بنو إسرائيل ينتظرون ظهور مسيح من بينهم ، ينشر ديانتهم في الأرض؛ فتصبحُ السيادة فيها لهم ، وهم لهذا لا يعترفون بالأسفار التي أضافتها الكنيسة إلي (العهد القديم) اليهودي ، لأنها غير مكتوبة بالعبرية .

فالنصرانية قد آمنت بالتوراة العبرية ، ولكنها زادت عليها بعض الأضافات ؛ وإن كانت هذه لا تمس العقيدة في شيء .

لقد جعلت الكنيسة من نفسها حكما علي ما كُتب عن المسيح ، وعن رسالته - واعتبر البابا نفسه معصوما - فأسقطت عددا كبيرا من الأسفار التي كتبت عنه ، ولم تحتفظ في العهد الجديد ، المسمي بالأنجيل ، إلا بعدد محدود من الكتابات من أهمها الاناجيل الأربعة التي لا تعترف بغيرها ، والتي يناقض بعضها بعضا .

والنصرانية هذه لا تعترف بالأسلام ، ولا زال أتباعها يكذبون ما جاء به، حتي بعد أن ظهر لهم أن الكتاب " المقدس " محرف ، ومليء بالمتناقضات، وظلوا - ولا يزال فريق منهم ينسبون إلي الأسلام أمورا ليست فيه ، ويسئون إلي رسوله أبلغ الأساءات ؛ ويحاربون من يؤمن بالله من أتباع الكنيسة كل المحاربة .

لقد جاء القرآن الكريم بعد ظهور المسيح بستة قرون ، جاء ليصحح مفهوم العقيدة ، ويخلصها من الشوائب التي علقت بها ، وجعل إيمان المؤمن بالرسل الذين بعثوا قبل الرسول (عليه الصلاة والسلام) جزءا من العقيدة الاسلامية ، كذلك الايمان بما جاء به الرسل السابقون يقول الله (سبحانه):

" يأيها الذين آمنوا آمنوا بالله ، ورسوله ، والكتاب الذي نُزّل علي رسوله ، والكتاب الذي أنزل من قبل ، ومن يكفُرْ بالله وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا " .

سورة النساء ١٣٦/٤

فالقرآن بهذا يؤكد المكانة البارزة التي يحتلها رسل الله في تاريخ التنزيل كنوح ، وإبراهيم ، وموسي ، وسائر أنبياء بني اسرائيل الحقيقيين ،

كذلك عيسى الذي يحتل مكانة بارزة بينهم في الدين الاسلامي هو وأمه حتى إن سورة كاملة من سور القرآن سميت باسمها ، وهي " سورة مريم " . وقد نزهها الله عن كل ما أحاطوها به من اتهامات . والذي يقرن بين ما جاء في سورة " مريم " وما جاء عنها في الأناجيل الأربعة يجد أن القرآن الكريم ، وضعها في منزلة لم تضعها فيها هذه الأناجيل . يقول الله سبحانه :

" واذكر في الكتاب (مريم) إذ انتبذت [1] من أهلها مكانا شرقيا (١٦) فاتخذت من دونهم حجابا ؛ فأرسلنا إليها روحنا ، فتمثل لها بشرا سويا (١٧) قالت : إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا (١٨) قال : إنما أنا رسول ربك ؛ لأهب لك غلاما زكيا (١٩) قالت : أنى يكون لي غلام ، ولم يمسسني بشر ، ولم أك بغيا (٢٠) قال : كذلك قال ربك : هو علي هين ؛ ولنجعله آية للناس ، ورحمة منا . وكان أمرا مقضيا (٢١) فحملته ، فانتبذت به مكانا قصيا (٢٢) فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة ، قالت : ياليتني متّ قبل هذا وكنت نسيا منسيا (٢٣) فناداها من تحتها ألا تحزني ، قد جعل ربك تحتك سريا [2] (٢٤) وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا (٢٥) ـ فكلي ، واشربي ، وقري عينا ؛ فإما ترين من البشر أحدا فقولي : إني نذرت للرحمن صوما ؛ فلن أكلم اليوم إنسيا (٢٦) فأتت به قومها تحمله ، قالوا : يا مريم ! لقد جئت شيئا فريا [3] (٢٧) . يا أخت هرون ! ما كان أبوك امرأ سوء ، وما كانت أمك بغيا (٢٨) ـ فأشارت إليه . قالوا : كيف نكلم من كان في المهد صبيا (٢٩) قال : إني عبد الله ، آتاني الكتاب ، وجعلني نبيا (٣٠) وجعلني مباركا أينما كنت ، وأوصاني بالصلاة ، والزكاة مادمت حيا (٣١) . وبرا بوالدتي ، ولم يجعلني جبارا شقيا (٣٢) . والسلامُ عليّ يوم وُلدتُ ، ويوم أموت ، ويوم أبعث حيا (٣٣) .

---

(١) أتخذت لنفسها مكانا بعيداً عن القوم . (٢) السّريّ : جدول الماء

(٢) فريا : عظيما (٣) يمترون : يشكون

ذلك عيسي ابنُ مريم قولَ الحق الذي فيه يَمْتَرون (٣٤) ما كان لله أن يتخذ من ولدٍ ؛ سبحانه . إذا قضي أمرا فإنما يقول له : كن فيكون (٣٥) .

" سورة مريم ١٩/١٦ ـ ٣٥ "

× × ×

فالقرآن كالأناجيل يعد ميلاد المسيح أمرا خارقا للعادة ، وبذلك يبرىء أمه من كل ما قاله عنها ذووها .

× × ×

** غير أننا يجب أن نعترف أن النصاري الذين لم يختلطوا بالمسلمين لا يعرفون ـ كما قلنا ـ شيئا عن الدين الأسلامي ، وما عرفوه عنه مشوه ، أو يحاولون تشويهه حتي يطمسوا معالمه ، ويظهروه للناس بمظهر كريه ، حتي ينفروهم منه ، رغم أنهم أو أكثرهم هجروا دينهم ، وابتعدوا عما ذكرته كتبهم، وجاراهم رجال الدين فيما ساروا عليه ؛ فلم يعودوا يعترفون منه إلا بالاسم ، وبالطقوس . ونحن من جانبنا ـ معشر المسلمين ـ لم نفعل شيئا لتعريف الناس بأمور ديننا ، ولا بحقيقته ، واكتفينا بالخطب ، والشعارات ـ وعقد المؤتمرات ، وإقامة الحفلات ... دون أن نستفيد من الخطط التي يضعها رجال الكنيسة لنشر دينهم . ومن يحاولون نشره ينسَون قول الله تعالي لرسوله ، " أدع إلي سبيل ربك ـ بالحكمة ، والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتي هي أحسن " .

لقد اتخذنا " التسامح " شعارنا ، دون أن نفهم حقيقته ، في عصور ، ومجتمعات لا تعرف معني التسامح ، ولازالت تعيش بعقلية " الحروب الصليبية التي كان هدفها القضاء علي الإسلام ، دين السلام ، والتعايش ، والحرية

الدينية لأهل الكتاب ، والتآخي الخ : ـ هذه العقلية التي لا تعلن عنها ، وإن كانت تمارسها عمليا . ففي أيامنا هذه يتجمع مندوبون من دول العالم في مجلس يسمونه " مجلس الأمن " يتخذ من الولايات المتحدة مقرا له . والذي يتتبع أعماله يجد أن مفهوم " الأمن " لا ينطبق على المسلمين . فأمامنا حرب صليبية ، دون رفع الصليب ، دائرة بين فلول الدولة التي كانت من قبل تسمى "يوغوسلافيا" ، وهي تتمثل في دولتي الصرب والكروات المسيحيتين المسلحتين أقوى تسليح ، عن طريق الدول المسيحية المحيطة بهما ، بينما الدولة المسلمة المعتدى عليها ، والمغتصبة أراضيها ، مجردة من السلاح بقرار من المجلس الموقر ، الذي أنشيء أصلا للحفاظ على الأمن في العالم ، فاذا طلبت الأذن لها بالتسلح أو الحيلوله بين إعدائها والتسلح رفض المجلس طلبها ، وحرمها من كل وسائل الدفاع ، لا لشيء إلا لأنها مسلمة . ولو كان هذا الصراع الدموي الباغي بين دول مسيحية أو مسيحية ويهودية لتدخل مجلس الأمن في الحال ، وأوقف سيل الدماء .

ومع ذلك فأن الذنب ليس ذنب المجلس ، وإنما هو ذنب مسلمي العالم الذين وقفوا يتفرجون دون أن يحركوا ساكنا . وصدق كليلة ودمنة الذي سجل مؤلفه كلمة مشهورة : " لقد أُكلتُ يوم أُكِل الثور الأبيض " ، ضاعت (الأندلس)، وتلتها (فلسطين) العربية ؛ والبوسنة ، والهَرْسَك ، يسيران في طريق الضياع . ولله في خلقه شئون .

يقول المسيو (موريس بُوكاي) الفرنسي الذي أشهر إسلامه : بعد دراسة الأسلام دراسة عميقة ، وكتب عن الكتب المقدسة الثلاث مقارنة :

" لقد فرض على أجيال أوربا الكثيرة العدد ، الجهل بكل ما يمس الأسلام . وهكذا ، فأن الاستعمال السائد حتي اليوم أن يسمي : " الدين

المحمدي " وأن يسمي من يعتنقونه " المحمديون " والغاية من هذا أن تظل النفوس مقتنعة بذلك الرأي الخاطيء القائل بأن المعتقدات المحمدية انتشرت بفضل جهاد رجل ، وأنها ليست لله ، فليس لهذه المعتقدات إذن مكان في المعتقدات الألهية " .

" إن كثيرا من معاصرينا المثقفين يهتمون بالجوانب الفلسفية ، والاجتماعية ، والسياسية في الإسلام ، دون أن يعالجوا قضية الوحي الإسلامي بصورة خاصة ، كما كان يجب عليهم أن يفعلوه ، ويردوا ما يشاع بين غير المسلمين من أن " محمدا " قد اعتمد فيما قاله علي من سبقه ، وهم يهدفون من وراء ذلك إلي استبعاد الوحي الإلهي منذ البداية " .

× × ×

** كل هذا يقودنا إلي أن نقول كيف يقال إن رسول الأسلام قد نقل ما أوحي إليه به عمن سبقوه ، وهم بنو اسرائيل ، والنصاري في الوقت الذي يعلن فيه صراحة أن كل ما ينسبونه إلي أنفسهم ، ويقولون أنه موحًي به إلي رسلهم وأنبيائهم ، قد دخله التحريف ، والتزييف ، والاختلاق ؟ كيف ينقل عن (الكتاب المقدس) ما يبلغه إلي المؤمنين برسالته ، وهو يعلم أنه ليس هو الموحَي به، وإنما كتبته أيد آدمية ، وادعت أنه وحي وليس بوحي ؟ أليس القرآن المنزل عليه هو الذي يقول عن بني إسرائيل : " فويلٌ للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ، ثم يقولون : هذا من عند الله ؛ ليشتروا به ثمنا قليلا . فويل لهم مما كتبت أيديهم، وويل لهم مما يكسبون (٧٩) وقالوا : لن تمسنا النار إلا أياما معدودة ، قل : أتّخذتم عند الله عهدا ، فلن يخلف الله عهده ؟ أم تقولون علي الله مالا تعلمون (٨٠) بلي ؛ من كسب سيئة ، وأحاطت به خطيئتُه

، فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون (٨١) .

سورة البقرة ٢/٧٩ ـ ٨١ .

فكيف ينقل محمد (صلوات الله وسلامه عليه) الوحي الإلهي عن الكتب المسماة بالمقدسة ، وهو يعلم أنها محرفة ، وليست من عند الله ، وأن الكتاب الذي يتلوه الله عليه يقول له ذلك ؟

كيف ينقل ما يبلغه قومه عن اليهود ، والله يقول فيهم : " ولقد آتينا موسى الكتاب ، وقفينا من بعده بالرسل ، وآتينا عيسى ابن مريم البينات ، وأيدناه بروح القدس . أفكلما جاءكم رسول بما لا تَهْوى أنفسكم استكبرتم ؛ ففريقا كذبتم ، وفريقا تقتلون ؟ (٨٧)

(س . البقرة ٢/٨٧)

ويقول:

" وإذا قيل لهم : آمنوا بالّذي أنزل الله ، قالوا : نؤمن بما أنزل علينا ـ ويكفرون بما وراءه ـ وهو الحق مصدقا لما معهم . قل : فلم تقتلون أنبياء الله من قبلُ . إن كنتم مؤمنين (٩١) . ولقد جاءكم موسى بالبينات ، ثم اتخذتم العجل من بعده ، وأنتم ظالمون (٩٢) وإذ أخذنا ميثاقكم ، ورفعنا فوقكم الطور ؛ خذوا ما آتيناكم بقوة ، واسمعوا . قالوا : سمعنا ، وعصينا ، وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم . قل : بئسما يأمركم به إيمانكم ؛ إن كنتم مؤمنين . (٩٣)

سورة البقرة ٢/٩١ ـ ٩٣

هذه الآيات البينات ، وكثير غيرها لا يمكن إلا أن تكون وحيا من الله الذي كان طرفا مع موسى ، ومع بني إسرائيل ، فهو يبلغ رسوله بما حدث

من اليهود الذين يعارضونه اليوم ، وينكرون دعوته ـ حدث مع (موسي) رسولهم الذي أخرجهم من مصر ، وجاوز بهم البحر ، وأخذ عليهم العهود والمواثيق بأن يعبدوا إلهم (يهوفا) الذي نجاهم من فرعون ، وقومه ، وإذ بهم ينغمسون في الوثنية ، ويعبدون العجل . ثم تأتي ذريتهم من بعدهم فيقتلون أنبياءهم إذا بلغوهم ما لا تهوي أنفسهم ...

فليس من المنطق إذن أن يدعي أحفادهم أن ما يوحي به إلي رسول الإسلام ليس إلا ما أوحي إلي أنبيائهم به ، ينقله إلي أتباعه من كتبهم ،علي حين أن كتبهم محرفة . (كما سنري) ومليئة بالوثنيات ، وبالخرافات ، والمخزيات . وكتاب.الله لم يرد فيه أي شيء من هذا . إن المصدر الذي أوحي بما أوحي إلي نوح وإلي ابراهيم وموسي ، وعيسي ، وسائر الرسل الأنبياء هو نفسه الذي أوحي إلي محمد بن عبد الله ، رسول الانسانيه جمعاء ، قصة كل من الأنبياء السابقين عليه ـ وهو الله تعالي . وإذا كانت الكتب السابقة علي القرآن قد حُرفت ، وبدلت ، فان القرآن أتي بحقيقة ما بُلغ ، ونعي علي المحرفين تحريفهم ، وعلي المزيفين تزييفهم ، والتاريخ هو التاريخ ، ولم يُخف شيئا مما حدث .

يقول الله سبحانه :

" ألم تر إلي الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يشترون الضلالة ، ويريدون أن تَضلوا السبيل (٤٤) . والله أعلم بأعدائكم ، وكفي بالله وليا ، وكفي بالله نصيرا (٤٥) . من الذين هادوا .. يحرفون الكَلِم عن مواضعه .. (٤٩) .

سورة النساء ٤/٤٤ ـ ٤٦ أ

ويقول جل جلاله عن اليهود :

" فبما نقضهم ميثاقهم ، لعناهم ، وجعلنا قلوبهم قاسية . يحرفون الكَلِم

عن مواضعه ، ونسوا حظا مما ذُكّروا به

سورة المائدة ٥/١٣

ويقول:

" إن الله اشتري من المؤمنين أنفُسَهم ، وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون في سبيل الله ، فيَقتلون ، ويُقتلون ، وعدا عليه حقا في التوراة ، والأنجيل ، والقرآن ؛ ومن أوفي بعهده من الله ؟ فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به ؛ وذلك هو الفوز العظيم "

س التوبة ٩/١١١

ويقول : " وإذ قال عيسي ابن مريم : يا بني إسرائيل ! إني رسول الله إليكم ، مصدقا لما بين يديّ من التوراة ، ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد ؛ فلما جاءهم بالبينات ، قالوا : هذا سحر مبين " (س. الصف ٦١/٦)

والسؤال الآن : أين التوراة الموحي بها ، وأين الأنجيل المنزل علي عيسي؟

ويقول جل جلاله :

" نزّل عليك الكتاب بالحق ، مصدّقا لما بين يديه ، وأنزل التوراة ، والأنجيل (٣) من قبلُ هدي للناس ، وأنزل الفرقان إن الذين كفروا بأيات الله لهم عذاب شديد ، والله عزيز ذو انتقام (٤) - س آل عمران ٣/٣ - ٤

ويقول - سبحانه :

" وإذ قال موسي لقومه ياقوم ' لم تؤذونني ، وقد تعلمون أني رسول الله إليكم ؟ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين

(س الصف ٦١ / ٥)

× × ×

** ترشيق النصوص " المقدسة " :

هذه الآيات البينات جعلت المسلمين يؤمنون بالكتب المذكورة الصحيحة الموحَي بها ، لا التي سطرتها أيدي البشر ، لذلك كان علينا ، قبل أن نعمل بما بها ، أن نوثق نصوصها ، وأن نتأكد من أنها هي حقيقةً الموحَي بها ، والمسجلة وقت نزولها علي الرسل .

لو كانت بين أيدينا مخطوطة منسوبة إلي شخص ما علي أنه مؤلفها ، ونريد نشرها فأول شيء نفكر فيه هو أن نتأكد من صحه هذا المكتوب علي غلافها هذا مخطوط في أي موضوع دنيوي من الموضوعات ؛ أفلا يكون من الأولي أن نتحقق من صحة ما نتعبد به ؟ هذا هو الموضوع الذي عالجه الباحثون علي مدي قرون عدة ، وقد توصلوا في النهاية إلي التشكيك في صحة ما جاء في (الكتاب المقدس) بشقيه : العهدين القديم والجديد . وبذلك أيدوا ما قاله كتاب الله (جل جلاله) عن الكتب الموسومة بالمقدسة وأنها من صنع البشر ، وليس كل ما فيها وحيا من خالق السموات والأرض

إن النظر في " الكتب المقدسة " يقتضي باديء ذي بدء دراسة الظروف التي سادت تحرير نصوصها . والطرائق التي انتقلت إلينا بها هذه النصوص " وإن معالجة نصوص الكتب المقدسة من خلال علم الدراسة النقدية شيء قريب العهد في البلاد الأوربية فقد ظل الناس إلي عهد قريب جدا يتقبلون نصوص (العهد القديم) ، و (العهد الجديد) علي أنها مقدسة . وكان التعبير عن أي روح نقدية إزاء الكتاب المقدس يعد خطيئة لا تغتفر . وكان القساوسة ، والأحبار هم الصفوة التي تستطيع بدون عناء أن يكون عندها معرفة إجمالية عن (التوراة) و (الأنجيل) أما عامة الناس فلم يكن يؤذن لها إلا بتلقي نصوص مختارة خلال الطقوس الدينية أو عبر العظات ، من مثل ما في (دلائل الخيرات) عند المسلمين

وكنا نذكر أن المارتن لوثر قد ثار على هذه الطريقة واحتج عليها وأعلن أن الناس يجب أن يقرءوا نصوص العهدين القديم والجديد بكاملها وقد ترجمهما إلي اللغة الألمانية فطردته الكنيسة وحرمته من الرصد الألهي، وألف مذهبه البروتستنطي فتبع مذهبه هذا الذي نادي به كثير من قومه ، وسُمي البروتستنطية ' أي مذهب لحتجين وهو الذي تدين به ألمانيا ، وغيرها وهو متأثر في تعاليمه وبساطته إلي حد كبير بالإسلام فليس فيه رهبانية فالقساوسة يتزوجون شأنهم شأن بقية خلق الله علي خلاف ما في المذهب الكاثوليكي وكنائسه خلو من التماثيل ، والصور ففيها بساطة المسجد وليس فيه شيء اسمه (البابا) المعصوم من الخطأ وثبتت قواعده ، كما هو الشأن في الأسلام فليس فيه مجالس كنسية تحلل الحرام وتحرم الحلال ، فتبيح للرجل أن يتزوج الرجل وللمرأة أن تتزوج المرأة وليس فيه مبدأ الاعتراف بالذنب وغفران القس لمرتكبه في الوقت الذي لا يملك غفران ذنبه هو فيعترف أمام قس آخر كما أن هناك كنائس أخري لا تتبع المذهب الكاثوليكي

وبعد هذا الانشقاق بين أتباع الكنيسة التي كانت موحدة اضطر البابا أن يجمع رجال الدين ليعيدوا النظر في شئون دينهم ومعتقداتهم كان ذلك في منتصف القرن السادس عشر الميلادي فدعا إلي المجمع الكنسي خلال المدة بين عامي ١٥٤٥ و ١٥٦٣ م في مدينتي ترنت وبولونيا في شمال إيطاليا للنظر في إصلاح حال الكنيسة الكاثوليكية بعد انتشار الأصلاح البروتستنطي الخطير فعقد المجلس عدة جلسات متفرقة في خلال المدة المشار إليها وسمي المجمع التريدنتي وتقرر في هذا المجمع تقديس العهدين القديم ، والجديد ، بما في ذلك الأسفار غير الموثقة ولقد أعلن أحد القساوسة أن الكتاب المقدس هو صوت الجالس علي العرش كل سفر من أسفاره أو اصحاحاته أو جمله أو جمله بسيطة لا حديث خطو به الكائن الأعلي وهو معصوم من الخطأ ... هذا هو الوحي المقدس لا أحد يعرف

من أين استمد هذا القس علمه هذا ، وهو ليس برسول يوحي إليه ، ليس إلا بشرا من بني آدم ، ثم من هو هذا الكائن الأعلي المعصوم من الخطأ؟ أهو خالق هذا الكون أم هو الرئيس الأعلي للكنيسة ؟ الله أعلم .

هذا القرار الكنسي الذي صدر من أعلي سلطة في الكنيسة ، والذي جعل (الكتاب المقدس) هو صوت الجالس علي العرش ، وحكم بتقديس العهدين كان يعيش في واد والبحوث الدينية في واد آخر . في العصر نفسه أي السادس عشر الميلادي .

قال تعالي : " وآتينا موسي الكتاب **فاختُلف فيه** ، ولولا كلمة سبقت من ربك لقُضي بينهم ؛ **وإنهم لفي شك منه مريب** " صدق الله العظيم .

هذه الحقيقة أنكرها اليهود

يوم أن أوحي بها إلي رسول الأسلام (صلوات الله وسلامه عليه) في القرن السادس الميلادي . وحتي ذلك الحين لم يكن هناك من غير المؤمنين من يصدق صحة هذه الحقيقة ؛ فكذب بها بنو إسرائيل ، وتابعهم في ذلك النصاري ، ولا يزالون . فقد كان هؤلاء وأولئك يسلمون بصحة كل ما جاء به (العهد القديم) ، سواء منه (التوراة) أو الكتب الأخري التي ألفت بعدها ، والتي لا تخرج عن أن تكون سردا تاريخيا ، وقصصا ، وخرافات ، وترهات ، وأوصافا للمعارك الدامية التي دارت بين الأسرائيليين وغيرهم ، وبينهم وبين أنفسهم ، إلي جانب نبوءات الأنبياء ، وغيرها . وهذه كلها إذا فكر فيها المرء، وأمعن في التفكير لا يستطيع أن يصدق أنها وحي من خالق السموات ، والأرض ، وحي من إله إسرائيل .

لذلك لا نعجب إذا رأينا أهل الكتاب الذين عاشوا في عصر نبي الأسلام (عليه الصلاة والسلام) أو بعده يقاومون الرسالة الألهية التي بلغها هذا النبي ـ الرسول :

(أولا) لأنهم لم يكونوا يعرفون عن حقيقة كتبهم شيئا ، فكانوا يؤمنون إيمانا عميقا بأنها وحي سماوي ، فلا سبيل لمعارضتها .

(ثانيا) لأن العلم لم يكن قد تقدم ، والتاريخ قد كُتب ، والناسَ قد وَعَوْا ما يقال ، وما ينقل اليهم من كتبهم ؛ لأن رجال الدين هنا وهناك كانوا بما يقولونه يسيطرون علي أتباع دينهم ، ويسوقونهم سوق السوائم ؛ وآية ذلك قيام الثورة الفرنسية التي دعا إليها تحكم رجال الكنيسة في مصائرهم ، الدنيوية ، والأخروية علي حد سواء ، والتي انتهت بفصل الكنيسة عن الدولة .

كذلك ثورة (مارتن لوثر) علي الكنيسة ، وقد كان هو نفسه من رجالها، وخروجُه منها ؛ لأنها كانت تحرم علي أتباعها قراءة (العهد القديم) إلا ما تختارة هي لهم ؛ لعلمها بما فيه من أمور يندي لها الجبين . ولذلك رأينا هذا الثائر يترجم (الكتاب المقدس) إلي اللغة الألمانية ؛ ليقرأه جميع أتباعه ، ومع ذلك فإنه كان يدرك حتي يومه هذا أن أكثر ما في هذا الكتاب وحي إلهي، لا من صنع البشر ؛ لأن التاريخ لم يكن قد كشف عن هذه الحقيقة بعدُ، وإذا كان رجال الكنيسة قد سيطروا علي أتباعها ، وأفهموهم أن ما جاء به الرسول (عيسي) عليه السلام ، ودُون في الأناجيل حق ، فأن الشيء ذاته قد حدث مع اليهود أيام أن كانت لهم دولة ، وأيام أن صاروا رعايا لمن قوضوا دولتهم هذه من الأشوريين ، والبابليين ، والرومان ، ودب فيهم الفساد حتي هددهم أنبياؤهم بالزوال ماداموا ينأوْن عن سبيل ربهم (يهوڤا) ، ويحرفون دينه ، ويعبدون الأصنام . فهذا النبي (أشعياء) يقول :

" اسمعي ، أيتها السموات ، وأنصتي أيتها الأرض ، فأن (يهوڤا) قد تكلم (١) . لقد غذيت أطفالا ، وربيتهم ، ولكنهم تمردوا عليّ (٢) الثور يعرف قانيه ، والحمار معلف صاحبه ، لكن إسرائيل لم تعرف ، وشعبي لم يفهم (٣) . ويل للأمة الخطّاءة ، للشعب المثقل بالآلم ، لذرية المجرمين الفجار ! لقد

انصرفوا عن (يهوذا) ، واستهانوا بقدوس إسرائيل ، وارتدوا علي أعقابهم(٤) .

ما هي العقوبات الجديدة التي نزلت بكم ، عندما استكثرتم من عصيانكم ؟ فالرأس كله سقيم ، والقلب كله مصاب ، من أخمص القدم ، حتي قمة الرأس . لا شيء معافي . ليس إلا جروح ، وكُدوم ، جروح تسيل ؛ لا شيء منها قد عولج أو ضُمّد . أو برئت الأمة من أثر الزيت (٦) . بلادكم قد صارت خرابا ، ومدنكم قد التهمتها النيران ، ومزارعكم (٥) قد أتلفها الغرباء أمام عيونكم ؛ لقد خربوها ، وهدموها كالبرابرة (٧) - (الأصحاح الأول ١ - ٧)

ويقول :

اغتسلوا ، وطهروا أنفسكم ، وأزيحوا من أمام ناظريّ أعمالكم الشريرة، كفوا عن الأساءة (١٧) تعلموا الأحسان ، وأنصفوا اليتيم ، ودافعوا عن الأرملة (١٨) .

* * * * * *

ماذا ننتظر من شعب يصفه ربه وحاميه بهذه الأوصاف ؟ المال ! المال ! فلا عجب إذن أن يتمرد الذين تمرد أسلافهم علي ربهم،أن يتمردوا علي رسول الأسلام وينكروا رسالته ، ويكيدوا له ، ويتهموه بتزييف الوحي عندما قال الله لهم : " إن هذا القرآن يقص علي بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون " .

كان لا بد إذن من الانتظار عشرة قرون أو تزيد حتي تُفك هذه الطلاسم التي أشار اليها كتاب الله الكريم ، حتي تكشف الدراسة النقدية للكتاب المقدس ، عن مصادره ، وعن مدي صحة ما جاء فيها ، وما تحمله من حقائق أو زيف (كما سنري) .

× × ×

لقد جاء الأسلام في القرن السادس الميلادي أي قبل قرار المجمع الكنسي الأعلي بعشرة قرون ، وأوحي الله في قرآنه إلي رسول الإسلام أن فريقا من بني اسرائيل " يكتبون الكتاب بأيديهم ، ثم يقولون : هذا من عند الله ؛ ليشتروا به ثمنا قليلا " (١) . ولكن اليهود آنذاك أنكروا إنكارا تاما ما قاله كتاب الله . وظل هذا الأنكار سائدا حتي القرن السادس عشر الميلادي ، فانضم إليه قرار المجمع المشار إليه الذي أيد ما يقول به اليهود منذ ظهور الأسلام ، وزاد علي ذلك أنه أضفي القداسة علي أسفار في (العهد القديم) لا يُعرف من الذي ألفها ، وعلي أسفار لا يتصور عاقل أن تكون موحي بها ، لما فيها من غزل فاضح ، وحكايات مخزية ، وخرافات ... لا يمكن أن تصدر عن خالق الكون . القرآن كاذب فيما يقول ، وفيما يتهم به الذين زيفوا التوراة ، والانجيل ، فكلاهما مقدس ، وكلاهما موحي به – هكذا قيل .

وكان لا بد أن ننتظر عشرة قرون بعد نزول القرآن ، حتي نري أول بذرة من بذور تصديق ما جاء به كتاب الله ، تلقي في حقل البحث الديني ، والنقد الديني للكتاب المقدس ، وظلت هذه البذور تنمو ، وتتكاثر حتي ملأت حقل التصديق بأكمله ، ولم تكفّ حتي اليوم عن نموها ، وتكاثرها . فقد أصبح نقد النصوص علما ، كان له الفضل في الكشف عن كثير من مشاكل مطروحة ، أثبت أن هناك مواطن ضعف كثيرة فيما يسمي (الكتب المقدسة) : التوراة ، والأنجيل . " ولكن الغالبية النصرانية ـ كما يقول مسيو (بُوكاي) ظلت في جهالة تامة عن أمر تناقض ما بهذه الكتب مع المعارف الدنيوية المشهورة التي تعد غالبا من المعارف الأساسية جدا " .

هذا ، وقبل أن ندخل في سراديب هذا النقد الذي أثبت أن كلا من العهدين القديم والجديد لم يدون كما أوحي به ، بل خطته يد الأنسان ، وملأته بما لا يليق بكتاب مقدس ـ نقف مع العهد القديم وقفة قصيرة لنصف ما فيه من أسفار .

---

(١) ذكرنا ما جاء به القرآن في هذا الصدد من قبل (ص ١٠ ـ ١٣)

العهد القديم

تطلق كلمة (العهد القديم) علي كل ما يضم ما أُنزل علي أنبياء بني إسرائيل من نبوءات ، وعلي غيرها من الأسفار التي تؤرخ لهذا الشعب منذ ظهوره إلي عالم الوجود حتي اختفائه من علي خريطة التاريخ ... الخ .

وسمي (القديم) لأنه هو الذي أبرم بين ابراهيم وربه الذي وعد رسوله أن يعطي الأسرائيليين أرض كنعان هبة منه - بينما (العهد الجديد) كان بين (عيسي) وربه .

ويطلق القرآن كلمة (التوراة) علي كتاب بني إسرائيل الذي أوحي به إلي (موسي) ؛ لأنه العمود الفقري للشريعة الأسرائيلية . أما ما عداه فلا علاقة له بالدين ، فهو تاريخ ، وتكرار لما أوحي به علي (موسي) ، حتي نبوءات الأنبياء . إلخ .

مكونات العهد القديم

أولا- التوراة :

تتألف من خمسة أسفار هي : التكوين أو الخليقة ، والخروج ، واللاويون أو الأحبار ، والعدد ، والتثنية .

(١) سفر التكوين :

يروي لنا قصة خلق الكون ، واستقرار الأنسان علي الأرض بعد أن كان يعيش في الجنة ، وظهور شعب بني إسرائيل . وهو يحدثنا عن نوح ، وابراهيم ، ويعقوب ، واسحق ، واسماعيل ، ثم عن يوسف ، وعن السيارة

التي اشترته ، وأخذته معها إلي مصر ، وإقامته بها ، وعن وصول يوسف إلي أعلي منصب في أمور التموين الخ ثم عن حدوث مجاعة في أيام يعقوب في أرض مقامه وقبيلته ، وارساله بنيه يمتارون من مصر، وتعرّف (يوسف) الذي كان حينذاك صاحب الشأن في الميرة علي إخوته دون أن يعرفوه ، واستدعائه لأهله أجمعين . وينتهي السفر بوفاة (يعقوب) بمصر ، وتحنيطه ، وحمله ، ليدفن في أرض كنعان . ثم وفاة (يوسف) ، وقد بلغ من العمر ١١٠ سنوات.

(٢) سفر الخروج:

يروي لنا قصة بني إسرائيل الذين قدموا مع يعقوب إلي مصر ، وكان عددهم ٧٠ نفسا ؛ وبعد فترة من الزمان أخذوا في التكاثر حتي " امتلأت الأرض بهم " . وأثناء مقامهم بمصر ولد (موسي) الليفي ، وتربي في بلاط فرعون بعد أن انتشل من النيل . ولما كبر حدثت بينه وبين فرعون وقومه أمور استدعت هربه من مصر ، وذهابه إلي سيناء وتزوجه من بنت كاهن (مدين) ثم اختياره رسولا إلي فرعون ليطلب منه الأذن لبني اسرائيل بمغادرة البلاد ، والذهاب الي طور سَيناء لعبادة (يهوڤا) إله اسرائيل ـ وقد تم ذلك ، واستقر بالطور لتلقي الوحي هناك .

(٣) سفر اللاويين :

يقص علينا اخبار قبيلة (لاو) التي ستتولي سدانة المعبد ، والسهر علي تابوت العهد الخ .

وقد استخدمت الأحداث التاريخية إطارا لعرض المباديء ، والتعاليم التي تنظم الحياة الدينية ، والاجتماعية ، للشعب الإسرائيلي . ومن هنا جاءت كلمة " التوراة " أي التعليم من فعل (ירה) يعلّم ، درّس .

(٤)سفر العدد :

به إحصاء جماعة بني اسرائيل الخارجين من مصر وبيوت آبائهم ، بعدد أسمائهم ، من ابن عشرين سنة فصاعدا ، أي كل من يخرج إلي الحرب .. الخ . وتسجيل مراحل الخروج (٣٦ إصحاحا) ـ ذكر الوعد (٣٤) وتخوم الأرض .

(٥)سفر التثنية :

وفيه تكرار لبنود الشريعة التي ذكرت في الأسفار السابقة . وكانت التوراة أربعة إصحاحات ثم أضيف اليها هذا السفر الذي عثر عليه في الهيكل عام ٦٢٢ ق . م .

ثانيا – النبـــوءات :

هذه الطائفة من الأسفار تضم نبوءات مختلف الأنبياء الذين ظهروا في بني إسرائيل ، أذا استثنينا كبارهم أمثال موسي ، وصموئيل ، وإيليا واليشع الذين تكفلت أسفار أخري بعرض حياتهم ، من خلال أحداث عصورهم السياسية ، ومشاركتهم فيها .

وهؤلاء الأنبياء ظهروا في الفترة التي تمتد من القرن الثامن إلي القرن الثاني قبل الميلاد .

أما أسفار القرن الثامن ق . م . فهي نبوءات عاموس ، وهُوشع ، وأشعياء ، وميخا ..

أما (عاموس) فقد ثار علي المظالم الاجتماعية ، وأما (هُوشع) فثار علي الفساد الديني مما جعل اسرائيليو عصره يعذبونه (بعد أن تزوج بعاهرة

مقدسة في عبادة وثنية) . كصورة الرب الذي يتألم بسبب انحلال شعبه ، وإن أعطاه حبه دائما .

- وأما (أشعياء) فانه وجْه للتاريخ السياسي . إنه يسود الأحداث ؛ لأن الملوك يستشيرونه . إنه نبي العظمة . وإلي مؤلفاته تضاف نبوءاته التي نشرها تلاميذه حتي القرن الثالث ق . م . ومنها الاحتجاج علي الظلم ، والخوف من يوم القيامة ، والتبشير بالتحرر ، في عصر النفي ، والتنبؤ بعودة الأسرائيليين إلي فلسطين في فترة لاحقة .

ومن المؤكد أن نبوءتَي أشعياء الثانية ، والثالثة تحتويان ، إلي جانب الاهتمام النبوي ، علي اهتمام سياسي يظهر فيهما جليا .

- وتتبع رسالة (ميخا) ، وهو معاصر لأشعياء ، أمثالَ هذه الأفكار .

- وفي القرن السابع ق . م يظهر صفَنْيا ، وأرمياء ، وناحوم ، وحَبَقُّوق علي مسرح التبشير . ويقضي (أرمياء) حياته شهيدا ، فتلقي (باروك) نبوءاته . وقد يكون هو كاتب المراثي المنسوبة إلي أرمياء .

- وفي بداية القرن السادس ق . م . يقع السبي البابلي ٥٨٦ ق . م ، فيؤخذ الأسرائيليون إلي (بابل) بالعراق أسري فتظهر في فترة السبي نبوءات نشطة .

ويعد النبي (حزْقيال) المجلّي في هذا المضمار ؛ فقد تضمنت نبوءاته الكثير من المواساة لشعبه ، حين بذر فيهم بذور الأمل ، بعودتهم إلي أرض كنعان - فلسطين ، وله رؤي مشهورة .

أما (عُوبِيديا) فيرتبط كتابه بكوارث القدس المشهورة .

● هذا ، ولما انتهت فترة النفي عام ٥٣٨ ق . م بعودة من أراد من بني إسرائيل العودة إلي فلسطين استؤنف النشاط النبوي مع (حَجّاي) ، و(زكريا) للحث علي إعادة بناء هيكل سليمان ... (ملاخي) .

وبعد بناء الهيكل تلتقي بنبوءات متنوعة ، ذات طبيعة روحانية .

ثم هناك كتاب (يونس) ، (والعهد القديم) لا ينسب إلي هذا النبي نبوءات بالمعني الحقيقي للكلمة ، فالكتاب ليس إلا حكاية يُستخلص منها أمر رئيسي هو الخضوع المطلق للإرادة الالهية .

ونتساءل : كيف أدرج هذا السفر بين أسفار الأنبياء ؟

(**دانيال**) – سفره مكتوب بثلاث لغات هي (العبرية ، والآرامية ، والإغريقية) . وهو رؤيا ، يقول المعلقون من النصاري إنها مذهلة ، من وجهة النظر التاريخية .

ويعتقد أن هذا السفر ألف في القرن الثاني ق . م . ، في عصر المكابيين .

ويحتمل أن يكون كاتب هذه الرؤيا قد هدف إلي إقناع مواطنيه ، في عصر (منتهي الشر) إلي أن ميعاد الخلاص قريب ، حتي يبعث فيهم روح الأمل .

ثالثا – كتب الشعر ، والحكمة :

هناك مجموعات متنافرة ، وإن كانت تتمتع بوحدة أدبية لاجدال فيها . وتحتل (المزامير) المقام الأول بين هذه المجموعات . إنها الصرح الشامخ في الشعر العبري . وينسب إلي (داود) كتابة عدد كبير منها . أما البقية فقد

كتبها الكهنة اللاويون . وموضوع هذه المزامير هو المدائح ، والتضرعات ، والتأملات ؛ وكانت وظيفتها طقوسية الطابع .

- أما سفر (أيوب) ، سفر (الحكمة والبر = العدل) فيرجع تاريخ تأليفه، فيما يقال ، إلي القرن الخامس (٤٠٠) أو السادس (٥٠٠) ق . م .
- ونشيد الأناشيد ليس إلا مجموعة من الأناشيد الرمزية التي تتناول الحب الإلهي قبل كل شيء .
- وأما (المراثي) علي سقوط (القدس) ، فتنسب إلي (أرمياء) في بداية القرن السابع ق . م .
- ويتكون سفر (الأمثال) من طائفة من أقوال سليمان ، وحكماء آخر كانوا في بلاطه .

وأما سفر (الجامعة) فيتحدث عن السعادة الدنيوية والحكمة .

سؤال:

والسؤال الذي يرد علي الذهن الآن هو : كيف استطاع هذا المجموع المتنافر في مضمونه ، والذي يتألف من أسفار دونت علي مدي سبعة قرون علي الأقل ، وجاءت من مصادر متنوعة للغاية ، ثم تجمعت بعد ذلك في مؤلف واحد .

كيف استطاع عبر القرون أن يكوّن كُلا لا تنفصم عراه ، وأن يصبح – مع بعض الاختلافات بين الجماعات الدينية – كتاب الوحي اليهودي – المسيحي ؟ كيف أصبح القانون Canon ، وهي كلمة إغريقية يرتبط بها معني (عدم المساس) ؟

إن هذا التجميع يرجع إلي العبد اليهودي نفسه ، ولا شك أن مرحلته الأولي تعود إلي القرن السابع ق . م . ثم جاءت الكتب اللاحقة فأضيفت إلي الموجود منه . علي أننا يجب أن نلحظ تلك المنزلة الخاصة التي حظيت بها في كل العصور الأسفار الخمسة التي تتألف منها (التوراة) ، والتي كانت نواة لما جاء بعدها . فقد أمكن ، فيما بعد ، إضافة أسفار الأنبياء إلي الأسفار التي قيلت من قبل ، مادامت هي أيضا تتحدث عن الثواب ، والعقاب .

إن النصرانية التي كانت في أول أمرها يهودية – نصرانية قد تقبلت بشكل طبيعي جدا ميراث (العهد القديم) الذي ارتبط به كل الارتباط مصنفو الأناجيل ، وذلك قبل أن يجري عليها التحول الذي حدث بتأثير (بولص) الداعية ، ولكن إذا كان " تطهير " الأناجيل قد تم باستبعاد الأناجيل "المزورة"، فأن المسئولين لم يَرَوْا ضروره الفرز بالنسبة للعهد القديم وقبلوا كل ما يحتويه تقريبا ، بل أضافوا إليه كما أشرنا إلي ذلك من قبل .

× × × × × ×

** مدي التصديق بصحة ما جاء في العهد القديم :

لقد ظل الحال كذلك حتي العصور الوسطي الأوربية لا يخطر ببال أحد أن يفكر في قضية التشكيك في صحة ما جاء بالعهد القديم .

ومنذ العصور الوسطي الأوربية حتي بداية العصور الحديثة ظهرت علي الألسنة، والأقلام بعض الانتقادات لمحتويات الكتاب المقدس ، ولكن الكنيسة نجحت دائما في فرض سيطرتها ، وكتم أنفاسها .

ومع ذلك فقد شهد العصر الحديث ميلاد نقد أصيل للنصوص المقدسة، أو المدعاة كذلك ، ولكن المتخصصين في هذا المجال لم تكن لديهم الشجاعة

الكافية للتصريح ، وتجاوز الأمور التفصيلية ، واكتفوا بالتلميح بأن هناك صعوبات في دراسة بعض نصوص الكتاب المقدس . وحتي ذلك الحين لم يجرؤ أحد منهم علي عمل موازنة صريحة ، وعميقة بين روايات الكتب المقدسة بعضها وبعض ، وبينها وبين المعارف الحديثة ؛ لأن هذا لو حدث كان سيقود إلي القضاء علي صحة فكرة الكتابات اليهودية النصرانية التي لم يناقشها حتي ذلك الحين أحد.

ولكي نقف علي حقيقة ما بأسفار (العهد القديم) يجدر بنا :

(أولا) أن نقف علي المصادر التي استُقي منها ما بها .

(ثانيا) أن نقف علي المسار الذي سلكته حتي وصلت إلي أن أصبحت شريعة يؤمن بها ملايين الناس .

مصادر العهد القديم

أولا- مرحلة النقل مشافهة :

كان العهد القديم قبل أن يدون ، ويصبح مجموعة من الأسفار تراثا شعبيا يعتمد اعتمادا كليا علي الذاكرة ، وكان هذا التراث يغنّي .

يقول (إدمون يعقوب) : " إن كل شعب يغني في مراحل تطوره البيئية " . ولم تكن إسرائيل بِدعا من الشعوب ؛ ففيها سبق الشعر النثر الفني . وكانت حياتها التاريخية خليطا من الحماس البالغ ، واليأس القاتل . ولهذا أعطت أغانيها تعبيرات كثيرة التنوع . فكان الناس يغنون في مختلف المناسبات . ويسجل لنا (العهد القديم) نفسه الأغاني التي كانت تغني في هذه المناسبات . فمنها أغاني الطعام ، وأغنية الاحتفال بنهاية الحصاد ؛ وأناشيد العمل ، مثل أناشيد البئر المشهورة (سفر العدد ٢١ / ١٧) يقول المصنف :

" ورحلوا من ثم إلي البئر ، وهي البئر التي قال يهوفا عنها لموسي اجمع الشعب حتي أعطيهم ماء (١٧) حينذاك ترنم إسرائيل بهذا النشيد اصعدي يا بئر ، تجاوبوا لها (١٨) بئر احتفرها الرؤساء ، احتفرها أشراف الشعب بمِخْصرة ، بعصيهم ، من البرية إلي المتّانة ؛ ومن المتّانة إلي تحْلِيئِيل، ومن تحليئيل إلي (باموت) (٢٠) ومن باموت في الوادي الذي في حقل مؤاب إلي رأس الفِسْجة الذي يُطل علي البرية (٢١) .

وأناشيد الزواج مثل : " نشيد الأنشاد " ، وتراتيل الحداد ، وأناشيد الحرب ، وما أكثرها في (العهد القديم) ؛ ومنها ترنيمة (دبُورة) (س . القضاة – الحكام ١/٥ – ٣٢) التي كانت ترددها فرحا بنصرة إسرائيل في حرب قادها (يهوفا) بنفسه (س العدد ٣٥/١٠) .

كذلك هناك الحكم ، والأمثال (س . الأمثال) . كذلك الأمثال والحكم التي تتضمنها الكتب التاريخية المقدسة ، وكَلِم البركات واللعنات ، والنواميس التي يسنتها الأنبياء للناس بعد أن يكون الرب قد وكّلهم في ذلك .

أما الطريقة التي كانت تتناقل بها كل هذه الأمور فهي طريق الأسرة ، شفويا ، وطريق المعابد في شكل روائي يقص تاريخ بني إسرائيل .

وقد تحول هذا التاريخ بسرعة إلي تطعيمه بالأمثال . من ذلك مثل يوثام (الحكام ٩ / ٧ / – ٢١) الذي فيه يقول :

" ذهبت الأشجار لتعين عليها ملكا ؛ فتوجهت أولا إلي الزيتونة ، ثم إلي شجرة التين ، ثم إلي الكرمة ، ثم إلي العَوسج " .

هذا الأسلوب من التعبير جعل (إدمون يعقوب) يقول : إن الوظيفة الأسطورية في الرواية لم تعبأ بما يتعلق بموضوعات ، وعصور كان تاريخها معروفا بشكل سيء " – ويخلص من هذا إلي القول بأنه " يحتمل أن ما يرويه (العهد القديم) عن (موسي) ، وعن الآباء الأولين لا يتفق إلا بشكل تقريبي

مع المجري التاريخي للأحداث . ولكن القصاصين كانوا يعرفون – حتي في هذه المرحلة من النقل الشفوي – كيف يخلعون الأناقة ، والخيال علي القصة حتي يربطوا بين أحداث شديدة التنوع " .

" وقد نجحوا في تقديم هذه الأحداث المختلفة في صورة حكاية لما حدث في أصل العالم ، وللإنسان . ويستطيع العقل الناقد أن يعدها في آخر الأمر معقولة إلي حد كبير " - وبذلك شهد شاهد من أهلها .

◎ هذه هي الحال التي كانت عليها الأمور حتي نهاية القرن الثالث عشر قبل ميلاد المسيح : قصص تتناقل شفاها من جيل إلي جيل ، يدخل عليها ما يدخل من التحوير ، والزيادة ، والنقص الخ .

فلما استقر بنو اسرائيل في أرض فلسطين فكروا في أغلب الظن في تدوين تراثهم ، والاحتفاظ به . ولكن الفكرة لم تكن قد تبلورت ، وتحمس لها ذوو الشأن .

ثانيا : مرحلة التدوين

ومع ذلك فأن هذه الفكرة شهدت ، علي أية حال ، تدوين بعض نواميس الشريعة ، والأحداث ، منها الناموس الذي تنسب كتابته إلي الرب نفسه ، وهو " الوصايا العشرة " . فهذا التشريع قد أُدخل فيما بعد في ثنايا (العهدالقديم)، ولكنه ذكر مرتين ، بروايتين مختلفتين ، مرة في سفر الخروج (١٨/٣١) [١] (خج ٢٧/٣٤ – ٢٨) ، وأخري في سفر التثنية (١/٥ – ٣٠) وروح الوصايا في الروايتين واحدة ، ولكن النص مختلف [٢] .

(١) يقول : " ولما فرغ (يهوثا) Yahvé من مخاطبة (موسي) دفع إليه لوحي الشهادة ، لوحين من حجر مكتوبين بأصبع الرب " .

(٢) انظر س الخروج (صح ١٩ و ٢٠ و ٢١ و ٢٢ و ٢٣ الخ) .

كذلك دونت الوثائق الهامة من عقود ، ومخاطبات ، وقوائم الشخصيات (الحكام ، وكبار الموظفين بالمدن ، وقوائم الأنساب) ، وقوائم القرابين ، وقوائم الغنائم ، الخ . بهذا تكونت الملفات التي ضمت الوثائق التي استخدمت فيما بعد في تحرير المؤلفات النهائية التي انتهت بالأسفار التي في حوزتنا اليوم .

بهذه الطريقة اختلطت في كل سفر أنواع أدبية متنوعة : وعلي أدل العلم المتخصصين أن يبحثوا عن الدوافع التي أدت إلي التأليف بين هذه الوثائق المتنافرة .

كذلك نبوءات يعقوب ، وموسي ، والنصوص التشريعية في جملتها ، كل هذا وغيره أنشأ تقليدا دينيا قبل سن القوانين الشرعية .

كل هذه النصوص تكوّن قطعا متفرقة في ثنايا (العهد القديم) . وهكذا نري أن هذا المجموع المتنافر الذي يسمي (العهد القديم) قد اعتمد أولا في جزء منه كبير علي الرواية الشفوية دهورا طويلة ، وخلال هذه الفترة سجلت أمور كثيرة هنا وهناك ، ثم في النهاية بدأ **التدوين النهائي** ، علي مراحل ، ولكن كيف ؟ ومتي ؟ .

ولكي نجيب عن هذين السؤالين ، علينا أن نستعرض حال كل قسم من أقسام (العهد القديم) علي حدة ، علي انفراد ، في شيء من الإيجاز (كما سيأتي) .

وها نحن أولاء نختم حديثنا هذا بكلمة عن سبب التدوين وطريقته في رأي Wells . وِلْـز ، و Hosmer هُسمر .

النفي البابلي والتدوين:

في عام ٥٨٦ ق . م أغار البابليون علي مملكة (يهوذا) في جنوب فلسطين التي كانت عاصمتها (أورشليم) أو (بيت المقدس) وتغلبوا عليها ، ونفَوا عددا كبيرا من أهلها إلي (بابل) . وبقي هؤلاء البابليون يحكمون البلاد وقتا طويلا ، وبقي اليهود المنفيون يعيشون في وادي الرافدين ، صاحب الحضارة العريقة ، والتقدم العلمي الكبير الذي خلف وراءه آثارا قيمة لا تزال باقية حتي اليوم ، تشهد بما كان عليه البابليون من تمدُّن . وقد كان لهذه البيئه الحضارية الجديدة بدون أدني شك آثار كبري في حياة الأسرائيليين المقيمين بها ، وفي أسلوب تفكيرهم ، وثقافتهم . كانت حياة تختلف كلية عن حياة البادية التي نشأ فيها بنو إسرائيل ، وترعرعوا ، وهم أميون . لقد خرجوا من هذه البادية ، واحتلوا أرض كنعان ، واختلطوا بأهلها ، وأفادوا من عاداتهم الوثنية ، وعلمهم الضيئل ، واقاموا لهم دولة ، ولكنهم لم تتفتح عيونهم علي شيء جديد ، وبقُوا يعيشون عيشة البداوة إلي حد كبير : يتقاتلون علي امتلاك بئر يشربون منها ، ويَسقون مواشيهم ، وظلوا حتي في أرض فلسطين ليس لديهم من غذاء روحي إلا ما كان يحمله إليهم الرسل الموفدون من قبل (يهوذا). والله سبحانه وتعالي يقول عنهم : " كلما جاءكم رسول بمالا تهوي أنفسُكم استكبرتم ، ففريقا كذبتم ، وفريقا تقتلون [١] .

ولكن الحال تبدل كل التبدل حين عاشوا في بابل حيث النعيم المقيم ، والثقافة العالية ، والعقول المتفتحة ، والأحساس العميق بالوطن ، ووحدة

---

(١) سورة (٢/٨٧)

الوطن . لهذا نري كبار المؤرخين يصفون (فترة النفي البابلي) بأنها هي التي فتّحت عيون الأسرائيليين ، وآذانهم وعقولهم ، فعكفوا علي تراثهم القديم يدونونه ، ويشرحونه ، ويصفونه الخ حتي استقر علي دعائم ثابته ، رغم ما فيه من اضطراب ، ومبالغة ، وزيف ، واختلاف ، و(التلمود البابلي) أكبر شاهد علي ذلك . يقول Wells في كتابه : موجز تاريخ العالم ص ٨٩ : A short History of the World

" إن أسفار (العهد القديم) جُمعت لأول مرة في (بابل) ، وظهرت في القرن الخامس ق . م . وهو يعقد صلة بين رأيه هذا وبين مرحلة (النفي البابلي) التي قضاها بنو إسرائيل في وادي الرافدين ، فيقول : إن بني إسرائيل لم يكونوا قبل النفي يكوّنون شعبا متحضرا ولا موحدا . ولم يكن فيهم في أغلب الظن إلا فئة قليلة تعرف القراءة والكتابة . وتاريخ هذا الشعب لم يذكر لنا قط أن أحدا فيه كان مثقفا ، وأنه كانت له قبل السبي أسفار يقرؤها عامة الناس . ويرجع الفضل في تحضرهم ، وتثقفهم ، وتولد فكرة جمع تراثهم الذي يضم تاريخهم ، وتسجيل عاداتهم المرعية . الي غير ذلك إلي ما تعلموه من البابليين أثناء مقامهم بينهم .

لذلك أخذوا في تدوين الاسفار من المصادر المتعددة ؛ حتي يعدّوا أنفسهم ليوم الخلاص الذي سيطلق فيه سراحهم . فرأيناهم حين عادوا إلي فلسطين شعبا تختلف حالته اختلافا كبيرا عما كانت عليه عند ذهابهم . ومن

هنا قال بعض المؤرخين إن التوراة هي التي صنعت الإسرائيليين ، وليس هؤلاء هم الذين صنعوا التوراة "

كذلك يكتب Wells في مؤلفه Outline of history " ملخص تاريخ اليهود " إن بني إسرائيل ذهبوا إلي (بابل) فمجا ، وعادوا منها متحضرين، خرجوا جماعة منقسمة علي بعضها البعض ، لا يربط بينهم أي رابط قومي ، وعادوا بروح وطنية متماسكة ، وميل إلي العزلة ، ذهبوا وليس لهم أدب مشترك بينهم ، وليس في تاريخهم ما يدل علي أنهم يميلون إلي قراءة أي كتاب ، وعادوا إلي وطنهم ومعهم قسم كبير من مادة " العهد القديم " . لقد نشط العقل الإسرائيلي في فترة السبي ، وخطا خطوات فساحا إلي الأمام ، بعد أن تخلص العبريون من ملوكهم القتلة الكثيري المنازعات ، وخلوا الساسة جانبا ، وعاشوا في الجو البابلي المسالم الباعث علي النشاط الذهني . (ص ٢٢٠) .

فالكتاب المقدس إذن لم يكن وحيا إلهيا مدونا وقت نزوله بحيث أمكن الحفاظ عليه ، كما حدث مع القرآن الكريم الذي حفظ ودون بأملاء من الرسول علي المؤمنين كما أنزل ، أملاه آية آية وحرفا حرفا أولا بأول . لقد اشترك الكهنة في كتابة (العهد القديم) وكان علي رأسهم الحَبْر (عِزْرا) الذي رأس طائفة من اللاويين – كما يذكر Hosmer – وكان ذلك في منتصف القرن الخامس ق .م وذهب بهم إلي فلسطين حيث استعاد معهم الحياة الأسرائيلية، وكان هو أكثرهم نشاطا ، وتحمسا حتي استطاع أن يجمع أجزاء كثيرة مما سمي بعد (العهد القديم) ، فلما قضي أجله أكمل الكهنة الذين خلفوه العمل

الذي بداه . وما أن وصلنا إلي عصر المكابيين حتي كانت أجزاء (العهد القديم) قد اكتملت ، ولكنها لم تكن قد أخذت بعدُ صورتها التي هي عليها الأن، كما أنها لم تكن كلها بمنزله واحدة من التقديس بل كانت منازل . Hos-mer, The Jews (٧٥ – ٧٦) .

● ● هذا ، وقد اخترع الأسرائيليون والنصاري فكرة (الألهام) يخلعونها علي من ليسوا بأنبياء ولا مرسلين ليبرروا بها عملهم الدنيوي الذي لا يمت إلي الوحي الألهي بسبب وصدق الله حين قال : " يكتبون الكتاب بأيديهم ، ثم يقولون : هذا من عند الله " .))

واذا كان أسلافنا قد عدوا قوله تعالي في سورة (الروم ٣٠ / ٢ ـ ٤) : غُلبت الروم في أدني الأرض ، وهم من بعد غلبهم سيُغلبون ، في بضع سنينَ . لله الأمر من قبل ومن بعد .)) من قبيل الأعجاز في القرآن الكريم . فمن باب أولي أن تعد المعجزة الكبري له ما ورد فيه عن تحريف ، واختلاف ، وتضارب .. الخ ما جاء بالكتب " المقدسة " ـ " فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون : هذا من عند الله ، ليشتروا به ثمنا قليلا " .

ثالثا ـ مرحلة التصديق بما جاء في الكتاب المقدس :

ولنبدأ بالتوراة:

ظل الأسرائيليون ، والنصاري – كما قلنا – دهورا طويلة يؤمنون بأن موسي هو الذي صنف التوراة ، ولعلهم كانوا يعتمدون في رأيهم هذا علي بعض آيات وردت فيها، من مثل :

– قول الرب لموسي : " اكتب هذا تذكارا في الكتاب " (خج ١٧/١٤)– وهذه اشارة إلي هزيمة عماليق .

ومثل ما ورد في الأصحاح الثالث والثلاثين من سفر العدد : " وكتب موسي مخارجهم برحلاتهم حسب قول الرب " .

وما جاء في الأصحاح الحادي والثلاثين من سفر التثنية : " وكتب موسي هذه التوراة وسلمها للكهنة من أبناء (ليفي) الذين يحملون تابوت عهد يهوفا ، وإلي جميع شيوخ إسرائيل (٣١/٩) .

– هذا ، ومنذ أوائل القرن الأول ق . م بدأ الدفاع عن هذه الفكرة ، فكرة أن (موسي) هو الذي كتب التوراة . قال ذلك المؤرخ الشهير (يوسف)، وفيلون الاسكندري .

كذلك يُنسب (العهد الجديد) إلي موسي تأليف التوراة . فهذا (بولص) الداعية الملقب في النص العربي بالرسول يقول في رسالته إلي أهل رومية (١٠/٥) ؛ لأن موسي يكتب في العدل الذي يصدر من الشريعة ". وهو بهذا يقتبس عبارة من سفر اللاويين .

هذا الاعتقاد ظل سائدا حتي نهاية العصور الوسطي النصرانية ، والذي خالف هذا الرأي هو (ابن عِزرا) في القرن الثاني عشر ، كان هو الوحيد الذي رفض هذه الفكرة .

رابعا ـ مرحلة النقد الديني :

بدء التشكك : القرن السادس عشر :

وفي القرن السادس عشر استرعي نظر (كارل شتات) أن سفر (التثنية) الذي هو السفر الأخير من (التوراة) يتحدث في نهايته (صح ٣٤/

٥ – ١٢) عن وفاة موسي ، ودفنه . فقال : ليس من المعقول أن يكون موسي قد كتب بنفسه خبر وفاته ، ودفنه . ثم جاء نقاد آخرون بعده فأنكروا أبوة موسي علي الأقل لجزء من الأسفار الخمسة التي منها تتألف التوراة .

● القرن الثامن عشر :

ولكن الفضل الأكبر للكشف عن الاضطراب البالغ الذي في (التوراة) يرجع إلي (يوحنا أستروك) الفرنسي الذي كان طبيبا لأحد ملوك فرنسا ، فقد نشر عام ١٧٥٣ م دراسة بعنوان :

((تكهنات عن المذكرات الأصلية التي يبدو أن (موسي) قد أفاد منها في كتابة (سفر التكوين) .))

لقد كان الطبيب (استروك) شجاعا حين أعلن أن هناك نصين جنبا إلي جنب في (سفر التكوين) يحتوي كل منهما علي خاصية مختلفة في تسمية الرب ، فأحدهما يسميه (يهوفا) ، بينما الآخر يسميه (إيلوهيم) .

وقد أكمل بحثه في هذا المجال أيخ هوم Eichhom (١٧٨٠ – ١٧٨٣) فكشف النقاب عن هذا الكشف بالنسبة للأسفار الأربعة الأخري في التوراة .

ثم جاء إلجن Ilgen (١٧٩٨ م) ولحظ أن أحد النصين اللذين بحثهما استروك ، وكشف فيهما عن أن كلا منهما يطلق علي الاله اسما يغاير الآخر ، - يهوفا وإيلوهيم – ينقسم هو أيضا إلي قسمين ؛ وبذلك تفتتت تماما أسفار موسي الخمسة .

● القرن التاسع عشر :

فلما كان القرن التاسع عشر وجدنا نقد النصوص الدينية يصل إلي نتائج حاسمة ، ودقيقة تقول : إن التوراة قد اشترك في كتابتها أربع جماعات:

(١) **إحداها** : واقدمها تلك التي تسمي الأله (يهوفا) ويرجع تاريخها في أغلب الأحايين إلي القرن التاسع ق . م . وقد عاشت في مملكة يهوذا ، في جنوب فلسطين التي كانت عاصمتها (أورشليم) أي بيت المقدس أو القدس .

(٢) **وثانيتها** : تلك التي تطلق علي الإله اسم (إيلوهيم) وهي أحدث عهدا من السابقة ، وكانت بمملكة اسرائيل ، مملكة الشمال التي كانت عاصمتها شُمرون .

(٣) **سفر التثنية** : وقد حرر في القرن الثامن أو السابع ق . م .

(٤) **الجماعة الكهنوتية أو جماعة الأحبار** : وهذه ظهرت في عصر النفي الي بابل ٥٨٦ ق . م أو بعده بقليل أي في القرن السادس ق . م .

● ● ●

من هذا نري أن تدوين (التوراة) استمر علي أقل تقدير ثلاثة قرون . وهي مدة غاية في الطول ، كما نري ، وتحتمل الزيادة والنقص ، والتغيير والتبديل الخ . كما تحتمل الاختلاف في الآراء ، وفي ذكر الأحداث ، والبعد عن الحقيقة والواقع ، ولا سيما إذا نظرنا إلي أن الفارق الزمني بين وقوع الأحداث منذ عصر نوح ، والطوفان ... حتي عصر التدوين فارق كبير جدا ، كانت فيه رواية الأحداث ، والوقائع ، والنواميس الشرعية وغيرها تتناقل فاها لفاه ، والنقل الفموي له ما له من مضار وخيمة .

ويكفي تأييدا لهذا أن نتصور – ونحن في أواخر القرن العشرين – أننا نسجل في أواخر هذا القرن تاريخ بلادنا منذ أوائله دون أن يكون قد دون منه شيء ؛ ثم نجيء نحن اليوم لندونه من علي ألسنه الناس . فما بالك إذا كنا

نسجل اليوم تاريخ الأسلام في عصره الأول دون أن يكون قد دون منه إلا مقتطفات قليلة لا تسمن ولا تغني من جوع ؟

● **القرن العشرون :**

إن البحوث التي مرت بنا ، والتي انتهت إلي أن التوراة قد اشترك في تدوينها عدة جماعات ، واستغرق هذا التدوين مالا يقل عن ٣٠٠ عام – لم تتوقف عند حد . فقد جاء القرن العشرون ، والعقول متفتحة ، والأضواء الساطعة ملقاة علي نصوص التوراة ، والشك في صحة هذا السفر " المقدس" آخذ في التزايد ، والحمية الدينية الملتهبة قد خمدت أو كادت ، والعقول العلمية قد أوصلتنا إلي الطواف حول الكرة الأرضية ، وإلي معرفة حقيقة القمر الذي يطوف حول الأرض الخ الخ – كل هذا ألقي علي عقول المفكرين حزما من الأشعة أضاءت لهم سبل التفكير . لم يعد الأحبار ، ولا الكنيسة حجر عثرة في سبيل البحث الحر الطليق في أمور الدين ، وفي مصادره ، وفي الكلام عن المشاركة الجماعية في تدوين أصوله . بذلك رأينا البحوث تزداد عمقا ، كما تزداد تعقيدا . ففي عام ١٩٤١ م استطاع البرفيسور ادولف لودز Adollphe Lods الاستاذ بالسربون ، والذي تتلمذت عليه ، أن يميز في الوثائق اليهوفية ثلاثة مصادر ، وفي الوثيقة الأيلوهيمية أربعة ، وفي سفر التثنية ستة ، وفي النصوص الكهنوية تسعة . وهذا ، دون اعتبار **"للأضافات الموزعة بين ثمانية مصنفين"** – كما يقول الأب (ريفو) .

ولكن البحث لم يتوقف عن النمو ، إذ أنه وصل في النصف الثاني من هذا القرن (العشرين) إلي أن يبين أن " كثيرا من النواميس التي في أسفار (موسي) الخمسة كان لها ما يماثلها خارج (التوراة) ، وفي فترة تسبق **بكثير التاريخ المنسوب إلي مصادر التوراة** " ، وأن " عددا من أسفار موسي الخمسة يفترض وجود مصدر آخر أكثر قِدَما من ذلك الذي يفترض أن هذه الوثائق قد خرجت منه " فالمشكلة إذن غاية في التعقيد ، ولا ندري أين يكمن الحل . وسيأتي يوم تظهر فيه الحقيقة كاملة بعون الله ، بفضل علماء النقد الديني أنفسهم .

وصدق الله العظيم حين قال :

" فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ، ثم يقولون : هذا من عند الله ؛ ليشتروا به ثمنا قليلا . فويل لهم مما كتبت أيديهم ، وويل لهم مما يكسبون .

(سورة البقرة ٢ / ٧٩)

وقال:

" يا أهل الكتاب ! قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ، ويعفو عن كثير " .

(سوره المائدة ٥ / ١٥)

وقال :

" ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل ، وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا ، وقال الله : إني معكم : لئن أقمتم الصلاة ، وآتيتم الزكاة ، وآمنتم برسلي – وعزّرتموهم ، وأقرضتم الله قرضا حسنا لأكفرنّ عنكم سيئاتكم ، ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار . فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل (١٢) . فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم ، وجعلنا قلوبهم قاسية . يحرفون

الكلم عن مواضعه ، ونسوا حظا مما ذُكّروا به ؛ ولا تزال تطّلع على خائنة منهم (١٣أ) **سورة المائدة (٥/١٢ - ١٣أ)**

❸ ❸ ❸

(وبعد) فان تعدد المصادر التي أشرنا إليها ، وطول المدة التي تنوولت فيها النصوص على ألسنة الناس ، من بدو ، ومن حضَر - كل هذا يجر إلي تنافرات ، وتكرارات عديدة في هذه النصوص ، الموسومة "بالمقدسة" . وقد أعلن كتاب الله الكريم عن كل هذا قبل أن يظهر النقد الديني للنصوص بعشرة قرون من الزمان ، وقال : " إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون " سورة النمل (٢٧ / ٧٦)

ويكفي لأثبات ما قاله الله عمليا أن نستعرض مادون عن خلق العالم ، وعن ذرية (قابيل) ، وعن الطوفان ، وعن بيع (يوسف) ، وعما جري له بمصر ، وغير ذلك كثير - لنؤمن بما وصل إليه النقد الديني لنصوص (العهد القديم) ولنضرب لبيان ذلك مثلا ، على حين أن الجُعبة ملأي بما أثبته النقد الحديث عن هذا (العهد " المقدس ") من أول حرف فيه إلي آخر حرف [1]

والله ولي التوفيق

قصة خلق العالم ، كما وردت في (التوراة) :

ذكرت هذه القصة التي لم يكن هناك داع لذكرها في سفر التكوين (الخليقة) اللهم إلا رغبة المصنف في أن يجعل من آدم أبا لهذا العالم عن طريق بني إسرائيل .

---

(١) انظر " أضواء علي الكتب المقدسة ، للمحاضر ففيه عدد وفير من الأمثلة علي تعدد الروايات التي تقص الخبر الواحد أو الحدث الواحد أو الفعل الواحد بصور مختلفة ، قد تكون متناقضة " . وقد نشرته كلية الآداب عام ٩١ - ١٩٩٢ ونحن بصدد إعداد مؤلف جامع عن هذه القضية سيصدر فور إتمامه (إن شاء الله) للبرهنة علي صدق ما جاء بالقرآن الكريم.

● هناك روايتان عن هذا الأمر ، الأولي منهما يرجع ما فيها من تصور إلي (الجماعة الأيلوهيمية) أي التي تسمي الأله (إيلوهيم) ، والأخري إلي اليهوفية وهي التي تسمي الأله (يهوفا) . ولكن نلحظ في هذه أن الاسمين يذكران جنبا إلي جنب ، مما يدل علي أن هناك يدا ثالثة ظهرت ، بعد أن وضعت الروايتان إحداهما بعد الأخري في القصة ، ووضعت اسم إيلوهيم بعد يهوفا حتي يظل أثر المدرسة الأيلوهيمية مستمرا . ونعود إلي الوقائع المذكورة في كل من الروايتين فنقول :

في الرواية الأيلوهيمية التي دونت الأصحاح الأول من سفر الخليقة ، والجمل الأربعة الأولي من الأصحاح الثاني أن إيلوهيم بدأ عمله بخلق الكائنات جميعا وبعد أن فعل ذلك صور الأنسان (آدم) . بينما تأتي الرواية الأخري اليهوفية ، وتذكر أن أول المخلوقات هو الأنسان ثم خلقت بقية الكائنات من بعده ؛ وعللت خلقه أولاً لكي يفلح الأرض ، فهي تقول : لم يكن هناك مطر ليروي الأرض ، ولا إنسان ليفلحها . ثم إنه لم يرد في الرواية الأولي ذكر لخلق المرأه ، بينما خلقت المرأة في الرواية الثانية من ضلع آدم بعد أن أتم يهوفا خلق العالم .

فهل هذا كلام موحي به . والله سبحانه وتعالي يقول للخلق جميعا : "أفلا يتدبرون القرآن ؟ " ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا "

س النساء (٨٢/٤)

وشكرا علي حسن استماعكم . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .